

الأزياء في العصر المملوكي

من خلال المراجع التاريخية والأثرية

د/ نهال محمود نفوري

أستاذ مساعد بقسم العمارة الداخلية - شعبة مسرح وأزياء

كلية الفنون الجميلة - جامعة دمشق

مقدمة :

لسنا بحاجة إلى بيان أهمية الدراسة الأثرية والتاريخية للباس وتطوره على مختلف العصور ، باعتباره عنصراً أساسياً من عناصر الحضارة الإنسانية للوقوف على درجة رقي الأمم وحضارتها ، وعلى المستوى الذي وصلته الحضارة المادية وما كانت عليه الدولة من انتعاش اقتصادي وفكري .

وتحتوي المصادر الأدبية والتاريخية والجغرافية ، وكتب الفقه والمعاجم على الكثير من الألفاظ والأسماء والصفات لمختلف أنواع اللباس مثال ذلك ما تطالعنا به مؤلفات ابن إياس ، وابن خلكان ، وهي غنية عن أي تعريف ، وكذلك مجموعة خطط المقرئ وما توفر فيها من مادة وسمة لا تخفي على القارئ فائدتها ... ، وكتاب آخر كصباح الأعشى للقلقشندي وقد أغنانا بمادة زاخرة عن موضوع البحث ، فضلاً عن المخطوطات أمثال مخطوط الجزري : كتاب في معرفة الحيل الهندسية ، ومخطوط المقامات الحريري للواسطي ، كذلك كتاب ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة . ولن يفوتنا أن نخص بالذكر مراجع لبعض المحدثين وأن نضع في طليقها كتاب "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" للمتشرق دوزي ، .. إذ ليس في مقدور أي باحث أن ينجز عملاً في هذا الميدان دون أن يستعين بهذا المعجم .

ونعود لنذكر بأن هذه التسميات والأسماء والصفات لمختلف أنواع اللباس يعوزها الوصف الدقيق لكي نستطيع أن نكون لها صوراً واضحة في أذهاننا خاصة وأن الكثير منها لا يستعمل في العصر الحديث ، ... وإذا رجعنا إلى المراجع الأثرية وجدنا عكس ذلك تماماً ، فكثيراً ما نجد صوراً ملونة وواضحة ، ودقيقة لمعظم أنواع اللباس في أكثر المخطوطات المصورة ، ولكن أياً منها لم يعن بذكر تفاصيل اللباس ولا المناسبة التي يلبس فيها ، ولكننا أحياناً قد نستطيع معرفة ذلك من سياق القصة أو الموضوع.

مما تقدم تبين لنا مدى حاجة المكتبة العربية إلى أبحاث تجمع بين ما تزر به كتب التاريخ والمعاجم في أسماء وألفاظ خاصة باللباس لكي تسمى بها الصور والرسوم الكثيرة الواردة على المخطوطات والآثار ومن هنا كان السبب لإهتمامي بالموضوع ، وقد أخترت العصر مملوكي موضوعاً لهذا البحث جامعة ما بين الآثار والتاريخ ، ومن هاتين المادتين .. أنجزت هذه الدراسة .. عسى أن تعطينا صورة صادقة عن اللباس في بلاط السلاطين المماليك في تلك الفترة ، والتي امتدت لقرنين من الزمن (٥٤٧ - ٩١٤هـ) (١٢٥٠ - ١٥١٧م) وهي محاولة إنما القصد منها سد ثغرة هامة في مجال مهم تنفقر إليه المكتبة العربية ... وهو موضوع اللباس.

مدخل :

يرجع أصل المماليك إلى قبائل التركمان الرحل التي استوطنت بلاد القوقاز وآسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهرين .

استقل أمر المماليك بعد أن تولوا مناصب قيادية في الدولة الأيوبية، واشتد نفوذهم وسطوتهم في عهد السلطان (الصالح أيوب) وتمكنوا من انتزاع السلطة لأنفسهم ، وأسسوا دولة المماليك البحرية (نسبة إلى مكان سكنهم قرب النيل) عام (٦٤٧-٧٩٢هـ) (١٢٥٠-١٣٩٠م) ...^(١)

انتهى حكم دولة المماليك البحرية لمصر وسوريا في عام (٧٨٤ - ١٣٩٠م) على يد طائفة أخرى من المماليك الشراكسة الذين يرجع نسبهم إلى بلاد الشركس وجورجيا ، وذلك في عهد السلطان ((قلاوون)) (٦٧٨-٦٨٩) (١٢٧٩-١٢٩٠م) حيث أسكنهم في أبراج القلعة مما أكسبهم اسم المماليك البرجية.... واستمروا في حكم مصر وسوريا تحت زعامة السلطان برقوق حتى الغزو العثماني لمصر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

أدى انتقال مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى مصر (بعد اجتياح المغول لبغداد) إلى ازدهار الحياة الثقافية وإلى النهضة الفنية وذلك بعد أن أصبحت مصر مركزاً للعالم الإسلامي، حيث ظهرت عناصر من الفنون التركية^(٢) ، أدخلت على الفن آنذاك ترتب عليها انقلابات فنية جوهرية في الفن الإسلامي ، وقد كان للنشاط التجاري في عصر المماليك فضل كبير في اتصال مجتمع الإسكندرية والقاهرة بكثير من أزياء المجتمعات الأوروبية والهندية والإيرانية والصينية عن طريق هؤلاء التجار الذين تولوا نقل المتاجر من المنسوجات الحريرية والجوخ و المخمل (القطيفة) بين الشرق والغرب وبيعها في الفنادق والخانات والوكالات التجارية والأسواق المصرية المنتشرة في المدن وعواصم الأقاليم^(٣) ...

كما أن هجرة الفنانين والصناع إلى مصر بعد تخريب المغول لمراكز الحضارة الشرقية الإسلامية في إيران والعراق والشام^(٤) كانت فرصة سانحة لإثراء الأقمشة والأزياء المملوكية وإدخال بعض الموضات والتصميمات إليها (شكل ١ - شكل ٢).

وكانت الأقمشة تتسج في مناسج خاصة أطلق عليها اسم "دار الطراز"^(٥) وكانت منتشرة في جميع أرجاء دولة المماليك : الإسكندرية ومصر ودمشق وغيرها^(٦) ، وكان السلاطين يشرفون عليها بشكل مباشر ... ونستطيع أن نحدد بعض أنواع القماش الفاخر في وقت المماليك سواء المحلي الصنع مثل الاسكندراني (نسبة إلى مكان صنعه في الإسكندرية) ، أو المنمر^(٧)، واشتهرت كذلك الأقمشة المصنعة في دمشق وحلب مثل البروكار أو الدمشقي وكذلك ((الأطلس)) والذي استخدم بكثرة في صناعة ((الخلع)) والملابس الخاصة بالأمراء وكبار رجال الدولة ، ومن الموصل كان قماش الموصللي أو الموسلين إلى جانب الأنواع المختلفة التي استوردت من بلاد الفرنجة والصين ، وعموما فصناعة النسيج في عصر المماليك لم تكن فقط لطبقة المماليك التي عاشت طبقة أرستقراطية في مصر والشام، فكان هناك إلى جانب ملابس السلطان والأمراء .. ملابس للجنود وملابس للخليفة وللعلماء ولرجال الدين وملابس للطوائف الدينية غير الإسلامية من مسيحيين ويهود وسامرة، وملابس للنساء ...

ولقد ساعد الرخاء الاقتصادي في العصر المملوكي على البذخ والتبذير والميل إلى الترف في جميع مناحي الحياة وتحديدًا في صناعة الأزياء مما أدى بدوره إلى المبالغة في أشكال الملابس وزخرفتها وزينتها . وقد بالغت بعض نساء الطبقة الحاكمة من البذخ إلى أقصى درجاته فيذكر أن زوجة السلطان برسباي قد صرفت مبلغ ثلاثين ألف دينار على ثوب صنع خصيصا من أجل حفل ختان ابنها ولي عهد برسباي ((الملك)) العزيز يوسف^(٨).

وكان من المألوف خلال عصر المماليك الجراكسة أن يرتدي الجنود والكتاب وعامة الشعب وكافة النساء ومن مختلف طبقات المجتمع الفراء المستورد^(٩) وهذا أكبر دليل على مظاهر الأبهة والبذخ التي كانت سائدة آنذاك ، ومن الجدير ذكره بأن ظروف الحكم القوي والانفتاح باتجاه الخارج والرغبة في التمتع بخيرات الدنيا ... وفي أحيانا كثيرة كانت تباعد ما بين أفراد المجتمع وتعاليم دينهم ... وهذا ما كان يجعل رجال الحكم من الخلفاء والسلاطين ... أن يلجؤوا إلى إصدار المراسيم لتنبيه الناس بأسرافهم في ملذاتهم وإفراطهم في الانبهار بالموضات والجري ورائها^(١٠) .

ومثال هذا ما حدث عام (٩١٢ - ١٥١٥م) بمناسبة عيد الفطر حيث أهدى السلطان ((قانسو الغوري)) ثياب التشريفية (الخلع السلطانية)^(١١) مصنوعة من القطن الملون لا يساوي الثوب منها أكثر من ثلاث دنائير .. بديلا عن الثياب الفاخرة التي جرت العادة على إهدائها في مثل هذه المناسبات في فترات الحكم السابقة .. وكان الهدف من ذلك أن تكون هذه الثياب مصنوعة من القماش الذي حث الدين الإسلامي الرجال على اتخاذ ملابسهم منه، وإلى تنبيه الناس بالبعد عن المحرم من الثياب.

الزري:

تطور الزي في عهد المماليك تطوراً ملحوظاً ، فالزي كالفن سريع الحساسية ، في بادئ الأمر كان الزي المملوكي متأثراً بالذوق الآسيوي الخشن، ثم مالت أزيائهم نحو الرقة والرفاهية، حتى وجد بين سلاطين المماليك وأمرائهم من بلغ أعلى مراتب الذوق، فضلاً عن الحساسية المرفهة للألوان^(١٢)، ولقد امتازت أزياء المماليك بألوانها المتعددة، على عكس اللون الأبيض الموحد^(١٣) الذي كان شعار الدولة الفاطمية ، فقد غلب على أزيائهم لونين أحدهما اللون الأسود، وكان شعار الدولة العباسية، وقد اتخذ من بعدهم الأيوبيون الذين قضوا على الفاطميين، واستمر في عهد المماليك حماة الخلافة العباسية، التي انتقلت من العراق إلى مصر، كما ونميز اللون الأصفر، الذي أصبح لونا مميزا لسلاطين المماليك .

وكان ظهور المماليك بألوانهم المتعددة في الموكب والأعياد والمناسبات من شأنه أن يبهز أعين عامة الشعب وذلك في كافة أرجاء الإمبراطورية المملوكية.

وفيما يلي سنستعرض الأزياء المملوكية الخاصة برجال الدولة ونسائهم.

زي الخليفة :

كان الخلفاء العباسيون في مصر يواظبون على اتباع تقاليد بغداد في لبس السواد وهو الزي الذي ظل يميز ملابسهم ويتخذ (شعاراً) لأتباعهم ومن يلوذ بهم وطبقاً لمنصبهم الذي كان روحياً أكثر منه زمناً دنيوياً. ولبس ما يسمى : خلعة الخلفاء أو التشريفية أو السواد^(١٤) ، وقد أوردها ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) في كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) وكانت تتألف من :

١- البردة : وكانت من ملابس النبي محمد (ص) وهي عبارة عن قطعة طويلة من القماش الصوفي السميك ، الذي يستعمله الناس لإكساء أجسامهم به خلال النهار و المتخذ كذلك غطاء أثناء الليل . أما لون هذا القماش فأسمر، أو رمادي ويبدو أن هذا النسيج كان في العهود القديمة مخططاً على الدوام .

٢- القباء : وكان يطلق عليها اسم فرجية وحسب دوزي القباء : ((لباس خارجي للرجال، فارسي الأصل، يطوى تحت الإبط بصورة منحرفة))^(١٥)

ولقد كان القباء شائع الاستعمال في عهد الرسول محمد (ص) ... ويورد المقرئزي (وصف مصر ج ٢، ص ٣٥٠)، أن الأمراء والجنود والسلاطين المماليك كانت ملابسهم أيام الدولة الجركسية هي (أقبية إما أبيض أو أحمر أو أزرق ، وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج .. وبعد ذلك في (ص ٣٥١) يعلمنا نفس المؤلف أن السلطان المنصور قلاوون أبطل لبس الكم الضيق) وكانت الأقبية تعمل من قماش الأطلس وكانت تقرأ في بعض الأحيان.

٣- القميص والرداء : وهو من ملابس الخلفاء العباسيين ولقد وصفه دوزي في معجمه ص ٣٠٠ : يلبس الشريقيون القميص فوق السروال ، ويمكن أن يصنع من التيل ، أو الكتان ، أو القطن ، أو الشاش الموصلي،

أو من الحرير والقطن المخططين ، وجميعها بيضاء لا تشوبها ألوان أخرى، أما عن هيئة القميص فله كمان واسعان للغاية يهبطان إلى المعصم، ويتدلى القميص إلى منتصف الساقين.

٤- غطاء الرأس : كان غطاء الرأس عند الخلفاء يتكون من عمامة مدورة لطيفة لها طرف (عذبة) يتدلى خلف الظهر يطلق عليه اسم الرurf (١٦) ويبلغ طوله قدمين (٦٠) سم وعرضه قدم واحد وهو مرسل من أعلى العمامة إلى أسفلها ، وفي المناسبات الرسمية والدينية كان الخليفة يرتدي (العمامة البغدادية) (١٧) وهي عبارة عن عمامة صغيرة لها طرف أو طرفان مسترسلان، ويضع على منكبيه رداء (طرحة) سوداء ، مرقومة بالبياض أحيانا، تستر العمامة وتتدلى على الظهر حتى الكعبين، ونقرأ أحيانا أن ملابس الخليفة لم تكن كلها سوداء دائما (١٨) وخلال حكم السلاطين الجراكسة ، حرم على الخليفة ارتداء ثوب الخلافة، فكان يرتدي أحيانا ملابس الطبقة العسكرية الارستقراطية السائدة في عصره.

ونظرا للمكانة الروحية التي تمتع بها الخليفة فلقد حرما من أية رسومات لهم فقد وضع هؤلاء الخلفاء في أرفع مكان ، بحيث تعذر اتخاذهم نماذج للصور التي تزين الكتب.

ونظرا لأن الخليفة استمر اتخاذه لأزياء عباسية فلقد استعنا بمسكوكة فضية ضربت سنة (٢٤١هـ - ٨٥٥م) عليها صورة الخليفة العباسي المتوكل ، وتظهر فيها عمامة الخليفة (شكل ٣)

زي السلطان :

كانت الموائب وغيرها تتطلب من السلطان لبس أفخر وأنفس ملابسه في كل مناسبة (١٩) وكان سلاطين المماليك يتمتعون بنوق كبير في لبسهم ، يكفي أن نذكر من المتأقنين السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي لبس قميصا دعي بالقمجون أو البنن (٢٠)، وكان عبارة عن ثوب قصير من غير بطانة تحته، ولا غشاء من فوقه ، وهو من الصوف ، أو الجوخ ، ولقد تداول الناس لبسه وذاع صيته في أوروبا فأصبح موضحة لدى الفرنجة. وكان السلطان يلبس لكل مناسبة زيا، وكذلك يغير قماشه على حسب الفصول (٢١) ففي الصيف يلبس الأقمشة الخفيفة البيضاء وفي الشتاء يلبس الجوخ ، والصوف والفرو، وكان يقام لهذه المناسبة احتفالات رسمية لتغيير (٢٢) الملابس مابين الصيف والشتاء ، وذلك بالخروج به في موكب رسمي:

وكان السلطان إذا خلع رداءه مرة ، لا يلبسه مرة ثانية مطلقا ، حيث توزع ملابسه المستعملة في مكان خاص، وقد ينعم بها على أمرائه وخاصته، ولعل الزي الأهم للسلطان، والذي توفرت عنه معلومات وافية هو : زيه حين توليه السلطنة وهو مايسمى بالسواد الخليفتي أو خلعة السلطنة (٢٣) أو قماش الخدمة ، ذلك لأن الخليفة العباسي الذي أقام في مصر ، كان حسب الأنظمة هو الذي يلبسها للسلطان في احتفال كبير الشئ المهم الذي يجب أن نذكره أنه ملابس التنصيب هي ملابس رجل دين أصيل، وقد شرح المقرئزي وبالتفصيل ملابس السلطان ببيرس الأول والتي أرسلها إليه الخليفة العباسي كخلعة، وكانت تتألف من :

١- عمامة سوداء منسوجة بخيوط من الذهب إذ كان (شعار) السلطنة الرسمي (عمامة سوداء) و(جبة سوداء) ، ويعتبر اللون الأسود وتحديدا هو شارة الولاء للخلافة العباسية ، والتي اتخذت هذا اللون شعارا لها منذ بدأ

نشأتها وظل الخلفاء العباسيون يحتفظون به - مع استثناءات قليلة جدا- وكانت عمامة السلطان كعمامة الخليفة ، لها طرف طويل (عذبة) يتدلى مسترسلا بين كتفيه (شكل ٣)

٢- الجبة أو الدراعة أو الفرجية : وتلك الملابس لا ترى إلا على المشايخ وحدهم، وسنشرح بالتفصيل شكل كل قطعة من هذه الملابس:

-/- الجبة : وحسب دوزي في معجمه ص ٩١-٩٢-٩٣ ، بأن الجبة ملبوس يرقى إلى العهود الإسلامية الأولى وكانت من ملابس الرسول محمد (ص) أما هيئتها فكانت عبارة عن ثوب ذو أكمام ضيقة وهي من الأمام أطول قليلا من الخلف ويمكن أن تكون من القطن أو الجوخ ، وتبطن الجبة في الشتاء ببطانة من الفرو (٢٤) . (انظر الشكل ٤)

- ب- الدراعة : يعلمنا المقرئزي (تاريخ السلاطين والممالك ج ١، ق ١، ص ١٤٩) أن الدراعة لباس يميز الوزراء عن بقية ضباط القلم أو العدالة ، ويصفها فيقول بأنها ثوب مفتوح من الأمام أعلى القلب ومزورة بأزرار وعري. ونقرأ للمؤرخ سيلفستر دي ساسي (طرائف عربية ج ١ ، ص ٢٥٠ النص العربي) أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان يلبس الدراعة المصنوعة من قماش أحادي اللون والدراعة كالقميص المفرط في السعة والفضضة (٢٥) (انظر الشكل ٥) (٢٦)

- ج- الفرجية وجمعها الفراجي : يصف لين (ألف ليلة وليلة ، ج ١، ص ٣٢٤ ، النص الإنكليزي) هذا اللباس على هذه الصورة : ((الفرجية ثوب فضفاض هفاهف ، يعمل من الجوخ عادة ، وله كمان واسع طويلا يتجاوزان قليلا أطراف الأصابع ، ويلبس هذا الثوب أفراد طبقة العلماء))

وفي تاريخ مصر للنويري (مخ ٢ ، ص ٤٩) أن الملك الناصر داود ، لدى وجوده في بغداد، تلقى من بين الثياب التي تولى الخلعة (فرجية مموج) أي فرجية من مادة ما يسمى بالفرنسية (الزملوط - وبر البعير) .. ولقد اكتسبت الفرجيات المصنوعة في مصر شهرة كبيرة ، جعلتها تحمل إلى الأقطار النائية (٢٧) .

أما الفرجية في الآثار فقد استطعنا تلمسها في رسوم بعض المخطوطات التي رسمت في تلك الفترة - انظر (الشكل ٤ + الشكل ٦) كذلك يلبس السلطان في مناسبة توليه طوق ذهب يكون حول عنقه، كان يلبسه ملوك الفراعنة، ولعله موروث عنهم، وسيف مذهب في وسط اسمه: العربي أو البدوي (٢٨)، وقيد ذهب يكون في رجله، للدلالة على أنه من المماليك ، إذ أن السلطان لا يأنف من أصله المتواضع ، كما أنه إذا ركب وضع في رجله مهمازا من الذهب.

أما لباسه أثناء المواكب : فكان يرتدي ما يسمى قماش الموكب (٢٩) ، وهذا يدل على أنه يلبس في المواكب الرسمية ما يلي :

لباس الرأس : وكان عبارة عن عمامة صغيرة سوداء مدورة على الرأس تسمى التخفيفة (٣٠) (عمامة صغيرة)، ولها عذبة ترسل بين كتفيه قدر ذراع . وقد عرفت له عمامة أخرى ، سميت : بالتخفيفة الكبيرة (٣١) ، وقد وصفها ابن إياس من أنها تستخدم في مقام التاج عند السلاطين المماليك.

وكانت التيجان يلبسها ملوك فارس ولهذا أصبحت (التخيفة الكبيرة) والتي أطلق عليها الناعورة ، ذات القرون الطويلة هي التاج الخاص بالسلطين الممالك كالتاج الذي اختص به الفرس .
وقد اعتاد السلطان الغوري لبس (التخيفة الصغيرة) كلما وجد عذرا يبيح له ذلك، وذلك لنقل وزن التخيفة الكبيرة، وتشاهد (الناعورة) في عدة صور رسمت من قبل فناني إيطاليا، ولعل أفضلها لوحة (حفل استقبال سفير البندقية شكل ٧)

وأحيانا كان يتخذ لباس لرأسه الكفة أو الكفتة أو كلفته وهي الطاقية ((كلوتة)) ولدى دوزي : المعجم المفصل ص ٣١٣ - إنها : (طاقية تؤلف هيكل العمامة)، وعلاوة على ذلك فإنها نفس كلمة كالوت، وهذا الجنس من الطاقية لم يكن يلبسه إلا رجال الطبقة الرفيعة. ونقرأ لدى المقرئزي (وصف مصر، ج ٢، ص ٣٧٢، ص ٣٥٠)، ((أن السلطان والأمراء وسائر العسكر إنما يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء مضرية تضربا عريضا ولها كلاليب بغير عمامة فوقها، وتكون شعورهم مضفورة مدلاة بدقوقة وهي في كيس حرير إما أحمر أو أصفر))^(٣١) (انظر الشكل ٨) وفي ذلك تقليدا للمغول بإرخاء نواثب شعورهم.

ثم يخبرنا المقرئزي أن السلطان الأشرف خليل ((بدل الكلفتا الجوخ والصفر ورسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بكلفات الزركش))

فأصبحت هذه الطريقة شعارا في السلطنة. وكان السلطان في الحرب لا يلبس عمامة، وإنما يلبس خوذة ، حيث توجد خوذة السلطان برسباي في متحف اللوفر - باريس (الشكل رقم ١٠)

أما لباس الجسد : فكان يلبس ما يسمى حلة الملك ، أو الكاملية ^(٣٢) ، وكانت عبارة عن رداء عربي (جبة) من حرير أسود ، لها طرف مذهب ومزخرف، وأكمام واسعة ومن تحتها إزارا ^(٣٤) أو فرجية (سبق شرحها) أو دراعة (سبق شرحها) - ربما أقصر من الكاملية - تكون بلون أسود أو بنفسجيا أو أخضر، من الصوف أو الجوخ أو الحرير، بتركيبة مزخرفة ((زركش)) ومن خيوط مذهب (الشكل ٩).

ومع ذلك ففي بعض المناسبات يلبس رداء فوق ملابسه (قباء)، يصفه المقرئزي (وصف مصر ، ج ٢، ص ٣٥٠) ، أن الأمراء والجنود والسلطان نفسه كانت ملابسه أيام الدولة الجركسية هي : (أقبية إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم. وبعد ذلك (ص ٣٥١) يعلمنا نفس المؤلف أن السلطان المنصور قلاوون أبطل لبس الكم الضيق وأن ابنه الملك الأشرف خليل أعطى لمماليكه ((الأقبية الأطلس)) والأقبية بشكل عام تفصل من قماش الأطلس وبألوان مختلفة - أسود - أحمر - أخضر - بنفسجي وكانت تفرى أحيانا بفراء السمور. وكان السلطان وأثناء الموكب يلبس زردية ، تحت قمائشه، إذا كان في موكب ، احترازا من عدو غادر ^(٣٥).

ومن الخصائص المميزة لزي السلطان (حزام) بند وكان عبارة عن شريط من الحرير الأصفر إذ كان من المألوف أن يلعب به البولوا...

وكما ذكرنا بأن الذوق الخاص بكل سلطان كان له تأثيره على الملابس فقد كان حب قانصوه الغوري لحياة البذخ أن نبذ هذا النوع من الحزام المتخذ من القطن البعلبكي واستبدل به جزاما ((حياصة)) من الذهب الخالص^(٣٦) وكان يزين أصابعه بخواتم مرصعة بالأحجار الكريمة.

وأثناء الحملات العسكرية : كان السلطان يرتدي نفس الزي المخصص للميدان والذي يرتديه أمراؤه^(٣٧) .
(انظر الشكل ١٠)

ومن مكمالات الأزياء السلطانية الكثير من الأحجار الكريمة والمجوهرات والخواتم والأساور والسيوف بأشكال مختلفة ، ولم تكن تعاليم الدين الإسلامي من حيث النقش تعني الكثير للسلطين المماليك حتى الأكثرهم تقوى.

مماليك الطبقة الحاكمة:

وكان زيهم يختلف من طائفة لأخرى ، حتى زاد عددهم على المائة ، وذلك على عكس المغول المعاصرين لهم ومن جنسهم ، الذين كان لبس سلطانهم أو أميرهم أو خدمهم واحدا.

وفيما يلي سنأتي على وصف لزي المماليك معتمدين على المقريري في كتابه الخطط - وهذا الزي ميزهم عن غريهم ، منذ أن أستولوا على الحكم بعد الأيوبيين ، إلى وقت إنهيار حكمهم...

وزيهم أساساً يميزه القباء والذي كان متنوعاً في مصدره فمنه المستوحى من المغول ودعي "الأقبية النثرية" أو هندية "تكلوت"^(٣٨) - وإسلامي "قباء إسلامي" حيث يوردا بن إياس أن الناصر هو أول من أتخذ الأقبية المفتوحة ، وربما يعني القباء الإسلامي^(٣٩) مما يعني أن هذا القباء مفتوح ، وله أكمام طويلة.

وكانت أزيائهم في الصيف من الأقمشة الخفيفة البيضاء ، وفي الشتاء من الصوف المحلى بالشعر أو الفرو^(٤٠) .

ويشدون الوسط بحزام "منطقة" - جمعها مناطق - أو "بالحياصة"^(٤١) - جمعها حوائص - حيث وجد لها سوق خاص في مصر ، أسمه سوق الحوائصيين.

أما على الرأس فكانت الطاقية "كلوتة" وكان يلف حول الطاقية عمامة . في أرجلهم لبسوا الأخفاف من الجلد الأديم الأبيض في الصيف والأصفر في الشتاء^(٤٢) ، شددت عليها المهاميز .

وفيما سنشرح وبالتفصيل أزياء لشرائح مختلفة من مماليك البلاط المملوكي .

زي أمراء المماليك ومقدموا الحلقة وأعيان الجند : يتميز عن زي بقية العساكر ، فيذكر المقريري أنه اختلف زي الأمراء والعساكر في دولة المماليك^(٤٣) . فقد كان زي الأمراء أكثر فخامة وغنى ، كما اختلف زيهم على حسب درجاتهم ، ولقد كان بعض الأمراء - كالسلطين - يدخلون تعديلات على الأزياء .

وقد لبس الأمراء فوق "القميمص" - سبق شرحه - و"الباس" أي السراويل ثوبين متميزين^(٤٤) (انظر الشكل ١٣).
أولها : الأقبية النثرية "تحتاني" ومن فوقها الأقبية الإسلامية "الفوقاني" ويشدون عليها السيف من الجانب الأيسر ، ويشدان إلى الجانب الأيمن حقيبة من الجلد البلغاري - لوضع المال وغيره تدعى "الصولق" والخنجر "كزلك".

وفيما يلي سنشرح هيئة هذه الملابس :

الأقبية التتيرية "التحتانية" : ويستدل من الإسم أن هذا النوع من الملابس من أصل أجنبي وحسب دوزي في ملحق القواميس أطلق عليه أسم "الثوب الفارسي" وكان القباء يصنع من الصوف ، والأطلس ، والحرير أو القطن البعلبكي ، وكان لونه إما أبيض أو مزين باللونين الأحمر والأزرق ويطلق عليه إسم "المشهر" وله أكام ضيقة . وخلال القرن الثالث عشر حرم قلاوون هذه "الموضة"^(٤٥) الأجنبية وطلب بتوسيع أكام القباء إلا أن هذا الإصلاح الذي فرضه قلاوون ، لم يستمر طويلاً واستمر القباء بأكامه الضيقة ولقد كان من المألوف ارتداء معطفين أو ثلاثة فوق القباء إذ يكون في الإمكان الاكتفاء بالثوب "التحتاني" فقط .

كما نقرأ عن السلطان الملك الأشرف خليل أنه قد أمر أمراءه بارتداء قلانس "كلوته" مطرزة أي "زركش" وذلك بدلاً من تلك المصنوعة من الجوخ وقباء من الأطلس^(٤٦) (أنظر الشكل ١٧) وكان من المألوف أن يرتدي الأمراء المصريون والسوريون فوق هذا المعطف القباء الإسلامي^(٤٧) "الفوقاني" ولعله ما عرف "بالسلاري" وهو قباء قصير الكم والطول وكان أمراء الطبقة الرفيعة يزخرفون أكامهم بالأشرطة المطرزة ويزينونها بالفراء الغالي الثمن. فقد حدثنا ابن بطوطة أنه في سنة ٧٣٢ هـ أن جلد السمور كان يساوي ٤٠٠ دينار هندي^(٤٨).

وبعد فترة من الزمن استمر لبس القباء القصير ذي الأكام القصيرة من قبل الأمراء وايضاً "أعيان الجند" ، ولكن كانت أكامها أكثر إتساعاً من أكام القباء "التحتاني" الضيقة^(٤٩) (أنظر الشكل ١١) .

ولعل من الجدير الإشارة إليه أن هذا القباء "الفوقاني" أو "السلاري" نسبة إلى الأمير "سلار" ، نائب السلطنة في عصر محمد قلاوون وببيرس الجاشنكير . يطابق في وصفه معطفاً عُرف من قبل "بالبغطاق أو البغلوطاق"^(٥٠) (أنظر الشكل ١٢) وتشير هذه الكلمة إلى قميص بدون ردينين أو بردينين قصيرين للغاية وهو يُلبس تحت الفرجية ، وكان يُصنع من القطن البعلبكي الأبيض أو الأخضر ، وكان أحياناً يصنع من الأطلس ... وكانت هذه الثياب تزين بالجواهر واللآلئ بل كان بعضها ينسج ويُطعم كله بالأحجار الكريمة وأخيراً فهو نفس اللباس الذي كان يدعي سلاري نسبة إلى الأمير سلار في أيام الناصر الذي أوجده ، أما "العباءة" العادية الخاصة بأمير عظيم في العصر المملوكي الشركسي المتأخر ، فكانت تدعي "الملوطة" وهي عبارة عن رداء "فوقاني" له ياقة .

وحسب دوزي : (المعجم المفصل بأسماء الملابس) أن المعنى^(٥١) بكلمة ملوطة هو الجبة ، (أنظر الشكل ١٣) وكذلك (أنظر الشكل ٤) .

وقد جرت العادة أن يرتدي المماليك في الأيام الممطرة عباءات مصنوعة من خامة خشنة لها وبر يطلق عليها أسم "جوخة" ، وقد ورد عن المقرئ في كتابه (الخطط - ج ٢ - ص ٩٨) أنها لم تكن تلبسها فقط الطبقة الرفيعة ، بل كان السلطان فرج نفسه يرتديها من حين لآخر .

أما الحزام الذي يشد إلى الوسط "المنطقة أو الحياصة" ، وكانت دائماً من الذهب أو الفضة ، مرصع بالفصوص الجواهر (أنظر شكل ١٤) أما "المهماز" فتارة يكون من الذهب أو من الفضة المحضنة ، أو من حديد مطلي بالذهب أو الفضة .

أما لباس الرأس ، فاختلقت أنواعه منها:

أ- الطواقي "كلوته" التي تلف حولها العمامة . والصغيرة منها سميت "الناصرية" نسبة إلى السلطان الناصر ، والكبيرة منها سُميت "طرخانية" نسبة إلى الأمير بلبغا الخاصكي وكذلك عُرُفت في عصر برقوق عمامة أطلق عليها أسم "عوج" وهذا النوع من العمامة أنتشر أيام المقريري وسمى بالكلوتات الجركسية^(٥٢) وكان المنديل يلف حول الكلوتة ليشكل إنتفاخات (أنظر الشكل ٧).

ب- الشربوش - وله المكانة الأولى كلباس للرأس - إذ يعتبر بصفة خاصة الطابع المميز للباس الأمير . وقد وصفه المقريري بأنه مثل "شئ يشبه التاج" ويبدو كما لو كان مثلث الشكل ويوضع على الرأس بلا عمامة "أي لا يلف حوله منديل" (أنظر الشكل ١٥) + (أنظر الشكل ٩).

ج- العمامة الأميرية وكانت تمنح لهم مع ثياب التشريف لدى تسلمهم الإمارة والشكلان الرئيسيان لهما هما التخفيفية الكبيرة (الناعورة) ^(٥٣) والتخفيفية الصغيرة - وقد سبق شرحها - .

د- السراقوج : وهو لباس خاص بالعسكريين وكان يشبه إلى حد كبير الزي التتري المميز ، وقد حدث سنة (٦٩٢هـ - الموافق لـ ١٢٩٣م) أن طلب عز الدين أيبك الرومي - عندما كان وقتئذ في قلعة المسلمين - من الملك الأشرف خليل أن يرسل إليه ثلاثين طاقية سراقوج بقصد جعل جواسيسه غير متميزين عن التتار ^(٥٤).

والسراقوج هو عبارة عن قلنسوة لها شكل مخروطي طويل بحافة مقلوبة إلى أعلى - (أنظر الشكل ١٦) (أنظر الشكل ٦). وتجدر الإشارة بأنه هذا النوع من لباس الرأس اختفى من عالم الموضة خلال عصر "المماليك البحرية" . ثم بعد مضي قرن من الزمان ، عاد إلى الظهور في عصر المماليك الشراكسة كلباس رأس للسيدات. زي حاشية السلطان "الخاصكية" : وقد لبسوا أحسن الملابس ، منذ السلطان الأشرف خليل . فكان يغلب على زيهم اللبس المزخرف . وقد تميز الأمراء منهم ، بلبس الأثواب "الأقبية" من القماش الأملس "الأطلس" ، اللامع "المعدني" وقد زُخرفت بالنقوش "الطرازات الزركش" وعلى رأسهم الطواقي المزخرفة "الكلوتات الزركش" أيضاً ^(٥٥) (أنظر الشكل ١٧).

زي الأوشاقية أو الأوجاقية : وهم الفرسان الذين يسيرون في الموكب السلطاني : وهم يركبون خيولاً يلبسون ثوبين قبايعين متشابهين من حرير أملس "أطلس" صفر ، بزخرفة زركش ، وعلى رأسهم يلبسون قبعة أو كوفية مزخرفة "زركش" بالذهب. (أنظر الشكل ١٨).

زي أرباب المناصب من غير المماليك:

الوزير : وكانت خلعة الوزير عبارة عن ثوبين "فوقاني" من القطيفة الحرير مطرزة بخطوط "رقم" حريرية ، وأحياناً تكون محلاة بشعر "السنباب" (أنظر الأشكال ٤ - ١٣) أو بفرو القدس أما "التحتاني" فهو من الحرير "الكمخا" وكان لونه أخضر وقد غلب على زي الوزير ما عُرف بإسم "جبة" (٥٦) أو "فرجية" تكون مفتوحة و"مفرجة" من الخلف.

وهذا للزي بنوعية كان يلبسه رجال الدواوين .. ولم يُقلد الوزير السيف كما كان الحال أيام الفاطميين (٥٧) ، لأنه لم يعد له نفوذ على رجال السيف.

وكذلك يضع الوزير على المنكب حول الرقبة منديلاً "طرحه" (٥٨) (أنظر الشكل ٤) ويلبس الوزير كذلك "العنبرية" وهي عبارة عن قلادة ضخمة مصنوعة من العنبر وهي تتوب عن الطوق أو العقد الجواهر ، الذي كان للوزير الفاطمي ، وذلك ربما لرخص القلادة العنبر ، ولضعف مركز الوزير في عهد المماليك عنه في عهد الفاطميين.

وعلى الرأس يلبس الوزير نوعاً خاصاً من العمامة المسماة (بقيار) (٥٩) وهي مخططة . وقد هجروا الذوابة المرخاة على الظهر "العذبة" والتي أصبحت تميز عمام رجال القضاء وحدهم . أما في رجليه ، فيلبس خفاً من الحرير الأخضر.

وعن زي القضاة : وكانوا بالضرورة يلبسون السواد إلا في الصيف ، فيلبسون لباساً أبيض (٦٠) ولقد تميز لباسهم بما عُرف بـ"فرجية العلماء" أو "تلق" وحسب دوزي : التلق : ضرب من الرداء الطويل ، المؤلف من خرق الجوخ المختلفة الألوان (٦١) وهو متسع الأكمام ، مفتوحاً فوق الكتفين وسابلاً على القدم ، وأحياناً مزوداً بالأزرار.

وعلى الرأس يلبسون عمامة كبيرة للغاية "شاشية أو شاش" ، يترك فيها طرف طويل "ذوابة أو عذبة" تسترسل بين الكتفين حتى تبلغ "قربوس" سروجهم ويلبسون "الطرحة" التي تستر العمامة ، وتتسدل على الظهر (أنظر الشكل ١٩) أما لباس القدم فكان دائماً الخف من الجلد "الأديم"

لزياء رجال الدين :

ويقصد بطلقة رجال الدين العلماء والمسلمون من غير الطبقة العسكرية ، وقد أطلق عليهم اسم "أرباب العمامات" أو "المتعممون" وذلك بسبب كبر حجم عمامتهم ولأنها الجزء الأهم في لباسهم (٦٢) وتتضح أهمية العمامة عن بقية الملابس الأخرى عند الحديث عن العمامات الملونة التي كان يمكن بها تمييز المسيحيين واليهود عن المسلمين فقد ذكر القلقشندي في خطبته بأن "أهل الزمة بالشام ، من النصاري لبسوا العمامات الزرقاء" ، واليهود الصفراء والسامرة الحمراء " وهذا القول أنطبق على العمامات دون أي جزء آخر من الملابس وكانت تصدر الكثير من الأحكام والأوامر الخاصة بتقييد أحجامها.

وكان يُلبس تحت العمامة والتي تبلغ حوالي سبع أذرع من القماش . طاقية صغيرة ويطلق عليها أسم "قبع" وكانت الطبقات الدنيا من الشعب تلبس على ما يظهر "الطاقية" دون استعمال أي شيء آخر معها^(٦٣). أما على جسددهم فلقد لبس المشايخ "الدلق" فوق ملابسهم. وكان رجال الدين من الطبقة الأدنى يضعون فوق رؤوسهم عمامة أكثر أناقة ويرتدون بدلاً من الدلق^(٦٤) "الفرجية" وجرت العادة أن يرتدي العلماء في الشتاء ملابس من الصوف الأبيض ، أما الملابس الملونة فلا تلبس إلا في منازلهم فقط ، وكانوا يلبسون الأخفاف من الجلد الطائفي ، بدون مهاميز^(٦٥) .

وفي الأيام الممطرة ، جرت العادة أن يرتدي رجال الدين ، من الطبقتين الرفيعة والدنيا عباءات من قماش سميك له وبر ، يطلق عليها أسم "جوخة" "سبق شرحها".
لباس السادة الأشراف :

وهم الذين يتصلون بصلة النسب بأسرة النبي ، محمد (ص) فقد لبسوا على إبدانهم "الفرجية" ، وعلى رأسهم عمام "شطفات"^(٦٦) لونها أخضر ، حتى يمتازوا عن غيرهم ، تعظيماً لقدرهم.
وعن زي الصوفية : وهم رجال الدين ، الذين كانت الدولة المملوكية تقيم لهم التكايا والخوانق^(٦٧) - وهي أماكن العكوف على العبادات - وكانوا غالباً يحضرون حفلات السلطان الدينية ، وكانوا يلبسون مثل القضاة والعلماء - "الدلق" إلا أنه أقصر قليلاً ولا يصل إلى القدمين ، كما يرضون ذوابة صغيرة لا تكاد تلتحق الكتف ، وذلك على الأذن اليسرى...

وبشكل عام كان رجال الدين حريصين على عدم ارتداء الملابس المحرمة ، ويقصد بها المصنوعة من الحرير ، والاطلس ، أو من أقمشة أخرى يغلب الحرير على خاماتها وفي أثناء الاحتفال بالمولد النبوي ، جرت العادة أن يخلع السلطان أحياناً على المقرئين والخطباء مقاطع من الحرير ، ولكن هذا ليس دليلاً على أنهم سيتخذون منها ملابس لهم.

ملابس النساء من أهل السلطان والأمراء :

تكاد المعلومات عن ملابس النساء قليلة للغاية ، وإن كان ولا ريب لباساً متقدماً جداً ، ومتنوع وكثير فلقد ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى بأن وصف ملبوس زوجات السلطان "الخوندات" يحتاج على عدة مجلدات لوصفه.

إلا أنه لم يكن هنالك من مؤرخين أو شعراء يستطيعون أن يتغنوا بها وكذلك لم تنو القوائم التي تتضمن جهاز العرائس والمرقة بعقود الزواج التي تعود إلى العصر المملوكي بأسماء تفصيلية لأزياء النساء .
وإنه لمن الخطأ أن نظن بأن تلك الملابس كانت بسيطة أو زهيدة التكاليف. وإذا صدقنا عبارات المقريري الذي كان يشغل وظيفة "محتسب" ويتحمل مسؤولية مراعاة آداب السلوك الخاصة بالنساء القاهريات ، ومن ثم كانت له خبرة واسعة في مثل هذه الأمور ، فإن الميول كانت عظيمة الإتجاه نحو مظاهر الترف والبذخ . حتى لدى نساء الطبقات الدنيا واللاتي كن يلبسن الفراء المستورد^(٦٨).

وذلك بالرغم من قوانين التقشف التي كانت تصدر المرة تلو الأخرى، إلا أن "خوندات" زوجات السلاطين وكن لا يتقدين بها ، وحالات كثيرة ممكن أن نوردها كأمثلة ، إلا أن أكثر الأمثلة التي تبعث على الدهشة من حيث المبالغة في التبذير هي قصة زوجة السلطان "برسبای" (١٤٢٢-١٤٣٨م) التي صرفت مبلغ ثلاثين ألف دينار على ثوب واحد ، صنع خصيصاً من أجل حفل ختان ابنها وولي عهد "برسبای" الملك "العزیز یوسف"^(٦٩).

وغنى عن البيان أن نساء المدينة كن يطفن محجبات ، وكانت توجد اشكال متنوعة من الحجب وهي (المقنعة ، والقناع ، والنقاب) وفيما يلي سنشرح هيئة أعطية الوجه والتي تعتبر جزءاً من هيئة ملابس الخروج للمرأة : وحسب معجم دوزي - المعجم المفصل بأسماء الملابس لدى العرب ، ص ٣٠٥ - يوضح أن كلمة قناع (وربما كذلك كلمة مقنع وكلمة مقنعة) تشير إلى خمار وجه تستعمله النساء . ويصفه لين (ألف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٢١٠) على هذه الشاكلة : "القناع قطعة من الشاش الموصلي له طول ذراع أو أكثر" وله أقل من ذلك العرض ، ويوضع شطر منه فوق الرأس ، تحت الإزار ، ويتدلى سائره ، من الأمام ، حتى الوسط ، وهو يغطي الوجه بتمامه وكان القناع أحياناً يصنع من الحرير ويزركش بالذهب . (أنظر الشكل ٢٠)

أما النقاب وبعد مراجعة المعجم المفصل - لرينهارت دوزي ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ - أن النقاب ما هو إلا برقع تنقب فيه المرأة موضع العين ... ويمكن للنساء المؤشرات أن يتبرقعن بأنقبة حريرية حمراء ، أما بنات الفقراء فلا يتبرقعن إلا بالتيل الأبيض أو الأزرق ، وهذان النوعان من الخرق لها فتحات صغيرة أمام العيون لتستطيع الإناث المتبرقعات بها أن يمشين في طريقتهم وإن ظهور المرأة بدون قناع بين الجمهور دليل على فقرها الشديد . (أنظر الشكل ٨).

ومن ملابس الهيئة الخارجية :

الإزار : وهو الغطاء الشامل للجسد ، وبالرغم من أنه لا يمكن للمرأة أن تظهر إلا به ، إلا أن ذلك لم يقف عائقاً أمام الموضة والتصميمات الكثيرة التي لبستها نساء الممالك داخل قصورهن.. وكان إزار نساء الممالك من الحرير - وتجدر الإشارة أن هذا النوع من الرداء عُرف منذ العهود الإسلامية الأولى وكان لباساً رجالياً فقط إلا أنه في العصور المتأخرة لم يعد يستعمل لتعيين رداء من أردية الرجال - ولقد ورد وصفه لبي في (ألف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٢١٠) أن الإزار هو قطعة من النسيج تلتف بها النساء العربيات عادة عندما يبرزن للجمهور . عرض الإزار ذراعان أو أكثر . وطوله ثلاث أذرع ، وتسحب النساء من قسمه الخلفي حاشية على الجزء العلوي من الرأس وعلى الجبين ويعلقن هذه الحاشية حينئذ بشريط مخيط من الداخل . أما البقية فتتدلى إلى الخلف وإلى كل جهة حتى تبلغ الأرض أو تكاد تمسها وهذا الإزار يلف الجسم كله تقريباً ، لأن المرأة تمسك بنهايته بصورة تجعله يلفها من الجهة الأمامية أيضاً ، وهكذا تغيب في هذا الكيس^(٧٠) (أنظر الشكل ٢١) .

ومن الثياب التحتانية التي أرادت بها النساء :

١- المنزر : وهو نوع من السراويل القصيرة التي تصل إلى الركبتين^(٧١).

٢- **السراويل الطويلة** : ولقد لبستها النساء بسبب حث الإسلام على لبسها إذ وردت أحاديث نبوية تدعو النساء إلى لبس السراويل ، منها : "يرحم الله المتسولات من النساء" وكلمة سراويل مشتقة من الكلمة الفارسية شلوار ، وكانت مستعملة منذ العهود الإسلامية الأولى^(٧٢).

ولقد اختلفت الآراء - فيما إذا كان هذين النوعين - من السراويل معصياً على جميع فئات الشعب أم لا - ولكن من المؤكد أن المرأة في البلاط المملوكي ارتدت السراويل الطويلة وهذا ما تأكد تماماً عندما أقيمت جثة السلطنة المملوكية شجرة الدر (١٢٥٠م) بعد أن تم قتلها من قبل جواري الحريم بقصرها . حيث كانت ترتدي السراويل وقد ربطت إلى جسمها برباط نفيس ، يطلق عليه اسم "تكة"^(٧٣) والتكة هي رباط السراويل ، وهو لا يظهر إذ أنه محجوب بالملايس الفوقانية ، وتصنع التكة من الحرير أو من الموصلي ، وهي في أغلب الأحيان مطرزة موشية ، وكانت تبلغ أسعارها أحياناً مئات الدنانير إذ كانت تصنع من الذهب أو من المجوهرات فقط^(٧٤) . وارتدت النساء كذلك ما يسمى : "البهظلة" وهو قميص له أكمام واسعة ، تبلغ ثلاثة أذرع وله ذيل طويل ينسدل على الأرض ، وكانت تتكلف عليها السيدات أموالاً طائلة ، وندين إلى المقريري بالتفصيلات القليلة التي أوردها بشأن الأثمان الباهظة للملابس ، فكانت "البهظلة" أحياناً يزيد سعرها على أكثر من ألف درهم ، وكذلك "الإزار" والأحذية "الخف والمرموزة".

ونوع آخر من الملابس ارتدته المرأة "البغالطيق"^(٧٥) وقد ورد وصفه في كتاب كاترمير : (تاريخ السلاطين المماليك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٥ و ٧٦) بأن كلمة - بغلطيق - تشير إلى نوع من القمصان قصيرة الكم أو من غير كم وكان هذا الثوب يصنع من قماش الأطلس المديني. وكانت هذه الثياب تزين بالجواهر واللآلئ ، بل كان بعضها ينسج ويطعم كله بالأحجار الكريمة (انظر الشكل ٢٢).

وكن يستخدمن - كلباس للرأس - قطعة من القماش يطلق عليها اسم "العصابة" وكانت تلف كالعمامة حول الجزء العلوي من الإزار الذي يغطي الشعر ، وكانت في أحياناً كثيرة تزينها عبارات دينية أو زخارف غنية جميلة مطرزة ومحلاة بالأحجار الكريمة (انظر الشكل ٢٢).

العمامة النسائية : ويستدل على وجودها من الطريقة العنيفة التي هاجم بها رجال الدين النساء اللاتي يلبسن العمام ... وقد صدر عام ٦٦٢هـ مرسوم يحرم على النساء ارتداء العمام ، فاختفى هذا الزي وحل محله "الطرطور" وهو عبارة على طاقية عالية مخروطية الشكل^(٧٦) .

ولقد لبست النساء في باكورة القرن التاسع الهجري نوع من طاقية كان ارتفاعها نمو ثلثي ذراع ، ولها قمم على شكل القباب ، وتتسع بقدر ثمن ذراع تقريباً وعملوها من الذهب^(٧٨) (الشكل ٢٣) كما لبس في أرجلهن الأخفاف المزكرشة وكانوا يلبس فوقها حذاء قصير يطلق عليه اسم مرموزة وهو نوع من الأحذية القصيرة تسمى "نعل" تخلع عند دخول المنزل.

ويسجدو أن زي النساء في عصر المماليك ، كان يتغير حسب - المودة - وقتذاك كما كان بعض السلاطين يتدخلون في هذا الزي ، حتى لا يخرج عن الحدود فمرات كثيرة منعوا في ارتداء القمصان ذات الأكمام الواسعة ، التي تزيد عن ثلاثة أذرع ، كما عارض تشبه النساء بالرجال ، فمنع من لبس الثياب المفتوحة الألبية القصيرة ، كما منع من لبس العمام الكبيرة^(٧٩) أو كتابة العبارات الدينية على العصائب ، أو المبالغة في تكاليف هذه الملابس.

الخاتمة

بالرغم من أن الممالك في أصل متواضع ، إلا أن فترة حكمهم تميزت بالبذخ والميل إلى الترف ، وعُرف عنهم حب التمتع بالحياة ولقد ساعدهم على هذا مجموعة من العوامل لعل أهمها هو إنتقال مقر الخلافة العباسية إلى مصر بعد سقوطها في بغداد على أيدي المغول ، وذلك أعطى لمصر مكانة كبيرة في العالم الإسلامي انعكست على جميع مناحي الحياة سواء منها الفكرية والسياسية والاقتصادية .

لقد تبين من خلال الدراسة المختصرة بعض الشيء لأزيائهم كيف لعبت الأخيرة دورها في الدعاية السياسية للسلطة الحاكمة ، فالمواكب والاستعراضات التي كان السلاطين يقومون بها وذلك في المناسبات المختلفة كانت تُشكل إبهاراً يفوق التصور ، حيث كانت الأزياء عنصراً مؤثراً فيها .

كذلك ظهر دور الملابس في تحقيق التبعية والإخضاع لبعض عناصر المجتمع ، خاصة أهل الذمة ، وناهيك عن "خلع التشريف" التي كانت الدولة تمنحها لرجالها وموظفيها الموالين لها.

ولقد أشارت الدراسة كيف أثر الإنفتاح الاقتصادي على صناعة الأزياء والحرف المرتبطة بها وخاصة حرفة النسيج .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن إطلاعهم على الثقافات المختلفة فتح المجال إلى الاقتباس والإبتكار في مجال

الأزياء....

وكانت تصميمات الأزياء تخضع لمواصفات وشروط تختلف من زي لآخر وذلك تبعاً للوظائف المختلفة داخل البلاط السلطاني ، فكان الزي يختلف من الأمير إلى الوزير إلى رئيس الديوان .. إلى الجند وأعيانهم ، فكل منهم زيه الخاص من حيث الخامة والتفصيل واللون وكذلك الحال بالنسبة لنسائهم.

مما سبق يتضح لنا وبجلاء عن السبب الذي يجعل علماء الحضارات يعتمدون على اللباس ويعتبرونه من أهم المقومات الحضارية التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة مدى تقدم وتأخر الشعوب .

وعلى هذا توصي الباحثة بتشجيع الباحثين على الخوض في هذا المجال وذلك لسد النقص في المكتبة العربية وكذلك توصي الباحثة بإنشاء متاحف خاصة بالأزياء وتاريخها .

المصادر والمراجع

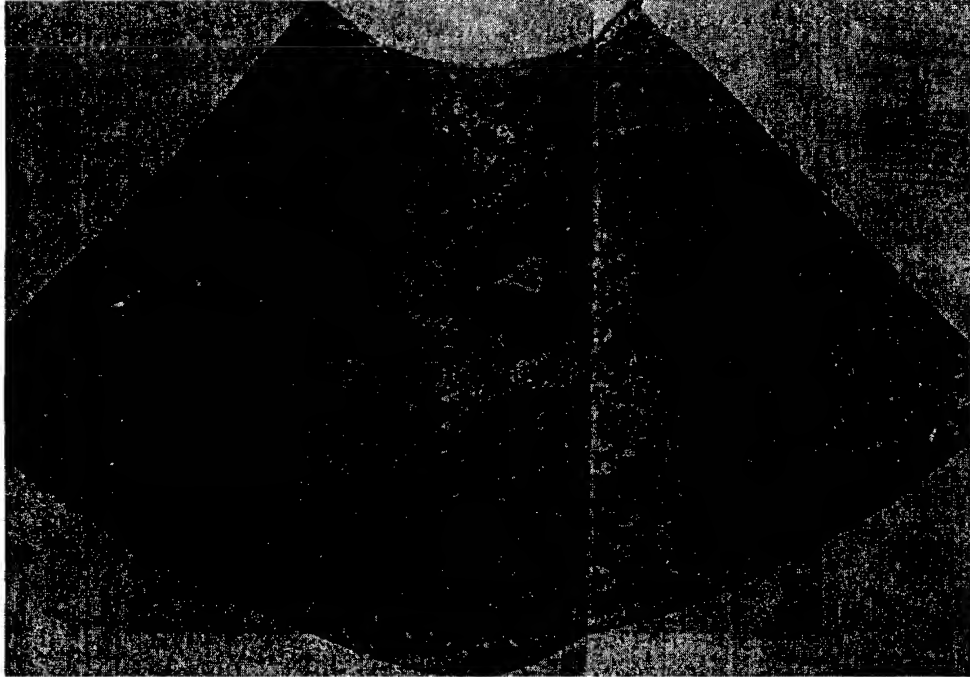
- ١- نعمت إسماعيل علام : فنون الشرط الأوسط في العصور الإسلامية ، ط ٥ ، ص ٢٧١.
- ٢- المرجع السابق ، ص ٢٧٢.
- ٣- المقرئزي الخطط المقرئزية ٤ أجزاء ج٢ ، ص ٩٨ القاهرة ١٣٢٦هـ.
- ٤- المرجع السابق : الخطط ج١ ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥.
- ٥- ابن نعري بردي (أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة ، تحقيق (بوبر) ج ٦ ، ص ٩٠ ، ٩٤.
- ٦- المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٩ .
- ٧- المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، وهو قماش من الحرير ، ينسج بالخيوط الذهبية .
- ٨- ابن نعري بردي (أبو المحاسن) ، النجوم الزاهرة ، دار الكتب ، ط ٢ ، تحقيق POPPER ، ط BERKELEY ١٩٠٩ - ١٩٢٨ ، وقد ترجم الجزء الخاص بالممالك .
- ٩- المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٨ .
- ١٠- ابن إياس : تاريخ مصر المشهور ببذائع الزهور في وقائع الدهور ، ط. بولاق ١٣١١ ج ٤ ، ص ١٠٤ .
- ١١- في الفترة المملوكية كانت الدولة تقدم ما يسمى : لباس التشريف- أو الخلع السلطانية وهي كلمة لا تعني بالضرورة الملابس فقط . فمن الممكن أن تكون فرساً كامل القماش ، وكانت تختلف على حسب درجة لابسها ، ولعل أهم ما يميزها هو وجود اسم السلطان منقوشاً عليها بلون يختلف عن لون خيوطها (القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٤ ، ص ٧ ، القاهرة ١٩١٣) وكانت الخلع تقدم غالباً عند تولية السلطان ، حيث تكون لسائر أرباب المملكة ، ويمكن أن تقدم إلى ضيوف الدولة أو اللاجئين إليها أو التجار ، ويمكن أن تكون خلعة السفر ، وخلعة الرضا (ابن نعري بردي- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٩٠ ، ٩٤) .
- ١٢- المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .
- ١٣- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- ١٤- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٩ ، ص ٦٩ ، تحقيق زريق وعز الدين ، بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ .
- ١٥- دوزي : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ترجمة أكرم الفاضل ، بغداد ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .
- ١٦- يشير القلقشندي : صبح الأعشى ، ص ٢٧٦ إلى أن الرفرف نصف نراع في ثلث نراع .
- ١٧- ابن إياس ، تاريخ مصر المشهور ببذائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة بولاق ، ج ٣ ، ص ٢٧ .
- ١٨- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ ، (القاهرة ١٩١٣-١٩١٩) .
- ١٩- المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٥٣ .
- ٢٠- المقرئزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦ .
- ٢١- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٠ ، خليل الظاهري زبدة كشف الممالك ، ت R9 ط باريس ١٩٨٤ ، ص ٨٨ .
- ٢٢- خليل الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق RAVAISS ، ط. PARIS ، ١٨٩١ ، ص ٨٦ .

- ٢٣- ابن تغري بردي (ابو المحاسن) : مورد اللطافة ، تحقيق CARLYLE ، ط CANTABRIGISE ، ١٩٧٢ ، ص ٤٥ ، ٧٨ ، ١٠٢ .
- ٢٤- ESIM ATIL : RENAISSANCE OF ISLAM ART OF THE MAMLUKS, D.C., 1981, P264
- ٢٥- دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس لدى العرب، ت أكرم الفاضل، بغداد ١٩٧١ ص ١٤٦-١٤٧
- ٢٦- ESIM ATIL : IBID-P261
- ٢٧- دوزي : معجم الملابس ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٩ .
- ٢٨- المقرئزي : السلوك في معرفة دول الملوك - ج ٧ ، ص ٤٨ .
- ٢٩- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، مرجع سابق ، ج ٦ ، ص ١٧٣ .
- ٣٠- المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٤٠ .
- ٣١- ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٤ ، ص ٣٣٢ والتخفيف الكبيرة "الناعورة" وهو اسم للساقية السورية ، وتعرف به كثيراً في منطقة حماه ، وهذه الكلمة ترمز إلى كبر حجمها ولكونها مسننة كترس الآلة ، وهو أكثر الأسماء مطابقة للتخفيف الكبيرة من ناحية التهكمية .
- ٣٢- دوزي : مرجع سابق ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ ط بغداد .
- ٣٣- ابن إياس : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٤١٨ ، ٤٢٠ .
- ٣٤- إزار أو الإيزار : كان يبدو في العهود الإسلامية الأولى أن كلمة إيزار قد استعملت لتعني ثوباً بصورة عامة مهما كان شكل هذا الثوب - وأن الإزار هو الرداء - وفي العصور المتأخرة - من الإسلام أي منذ عهد محمد (ص) وحتى أيامنا هذه ، تدل على كلمة إيزار على هذا الغطاء الكبير أو الرداء الواسع الذي تلفت به نساء الشرق . دوزي ، معجم الملابس ، ط بغداد ، ص ٣١ .
- ٣٥- المقرئزي السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٢/١ ص ٦٠٨ .
- ٣٦- ابن إياس ، مرجع سابق ج ٢ ، ص ٨٢ .
- ٣٧- صلاح عيسى : رجال مرجع دابق ، مكتبة التاريخ - ص ٢٠ .
- ٣٨- دوزي - المعجم المفصل - ص ٨٥ - ط بغداد .
- ٣٩- ابن إياس ، بدائع الزهور ... ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .
- ٤٠- القلقشندي : صبح الأعشى ... ، ج ٤ ، ص ٤٠ .
- ٤١- القلقشندي : المرجع السابق ... ، ج ٣ ، ص ١٦١ .
- ٤٢- القلقشندي : المرجع نفسه ... ، ج ٤ ، ص ٤١ .
- ٤٣- المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .
- ٤٤- المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .
- ٤٥- المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ .
- ٤٦- المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٩ .
- ٤٧- المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .
- ٤٨- ابن بطوطة : ج ٢ ، ص ٤٠٢ .
- ٤٩- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٠ .
- ٥٠- رينهارت دوزي : المعجم المفصل بأسماء الملابس لدى العرب ، ص ٧٢ ط بغداد .
- ٥١- رينهارت دوزي : المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

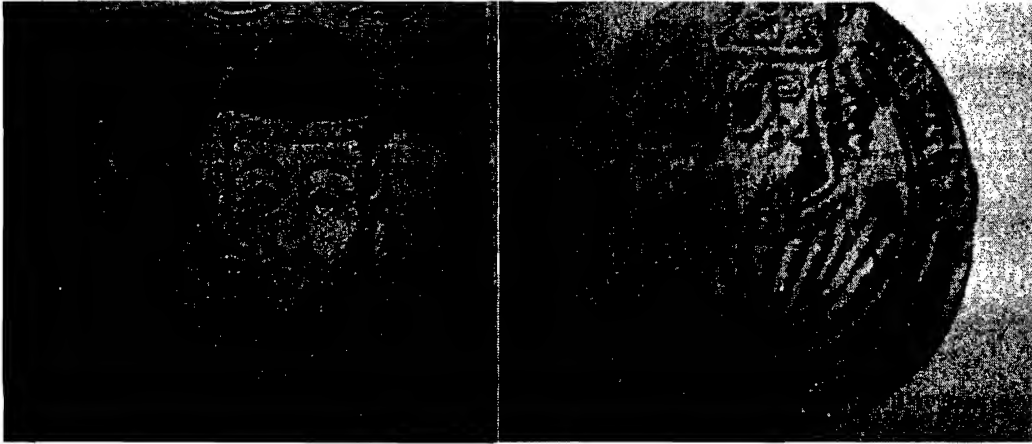
- ٥٢- المقريري : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .
- ٥٣- اين اياس ، بدائع الزهور ... ، ج ٣ "تحقيق كاله ومصطفى" ، ص ١٥٣ .
- ٥٤- المقريري : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٧٨٣ .
- ٥٥- رينهات دوزي : المعجم المفصل بأسماء الملابس ، ص ٣١٢ - ٣١٣ - ط بغداد .
- ٥٦- المقريري : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧١ .
- ٥٧- عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٩٠ .
- ٥٨- المقريري : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ .
- ٥٩- المقريري : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ .
- ٦٠- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤١ - ٤٢ .
- ٦١- رينهات دوزي : المعجم المفصل ... ص ١٥٠ - طبعة بغداد .
- ٦٢- النجوم ، مرجع سابق ، POPPER ، ج ٧ ، ص ١٢٥ .
- ٦٣- رينهات دوزي : المعجم المفصل ... - ص ٢٣٠ ، ط بغداد .
- ٦٤- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٢ .
- ٦٥- القلقشندي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤١ .
- ٦٦- عمائم شطفات وحسب معجم رينهات دوزي - المعجم المفصل بأسماء .. ، ص ١٨٨ بأن الشطفة هي عبارة عن طرحات تشد حول الرأس - وكانت خاصة بالبدو والواهبيين .
- ٦٧- المقريري : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧١ وما بعدها .
- ٦٨- المقريري : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .
- ٦٩- نفس المصدر : ج ٢ ، ص ٣٨٤ .
- ٧٠- رينهات دوزي : المعجم المفصل بأسماء ... ص ٣١ - ٣٢ ، طبعة بغداد .
- ٧١- رينهات دوزي : المصدر السابق ، ص ٤٠ .
- ٧٢- رينهات دوزي : المصدر السابق ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
- ٧٣- المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٤ .
- ٧٤- دوزي : مرجع سابق ، ص ٨٢ وما بعدها .
- ٧٥- المقريري : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٢٧ - وكذلك أنظر - دوزي : المعجم المفصل ، ص ٧١ .
- ٧٦- BREND BARBARA : ISLAMIC ART - BRITISH LILRARY , 2005, P108-
- ٧٧- رينهات دوزي - المعجم المفصل ، ص ٢١٧ .
- ٧٨- المقريري : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .
- ٧٩- المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٣ .



شكل (١) قطعة من النسيج بداية القرن ١٤ م
متحف الفن الإسلامي بالقاهرة
العبارة المكتوبة (عز لمولانا السلطان الملك الناصر)



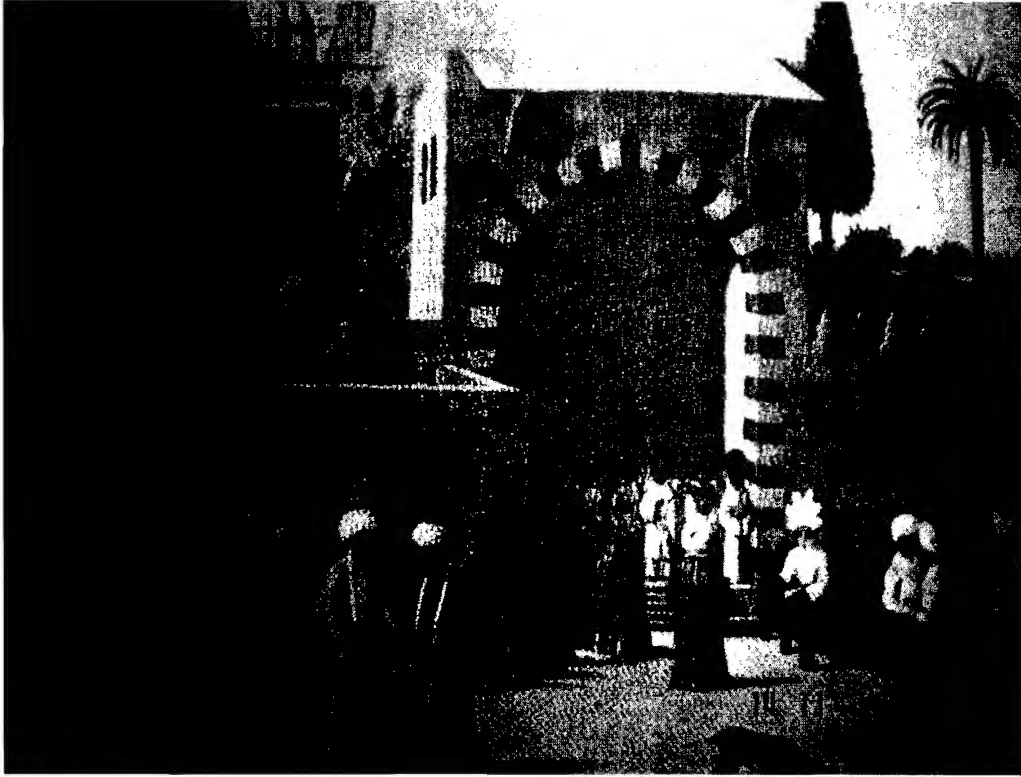
شكل (٢) غطاء أو عباءة فضفاضة من غير أكمام تلبس فوق الملابس
بداية القرن ١٤ - مصنوعة من الحرير الطبيعي بزخارف نباتية
متحف كليفلاند للفن



الشكل (٣) مسكوكة فضية (٢٤١هـ - ٨٥٥م)
تحمل صورة الخليفة العباسي المتوكل على الله متحف فينيزيا
تظهر بوضوح عمامة الخليفة العباسي



شكل (٤) مخطوط يعمود (٩٠٠هـ - ١٤٩٤م)
الإسكندر الأكبر وحكامه السبعة للرسام
بهزاد موجود بالمكتبة البريطانية لندن
يظهر فيها جبة القضاة وكذلك أنواع مختلفة من العمامات



الشكل (٧) لوحة من مقامات الحريري

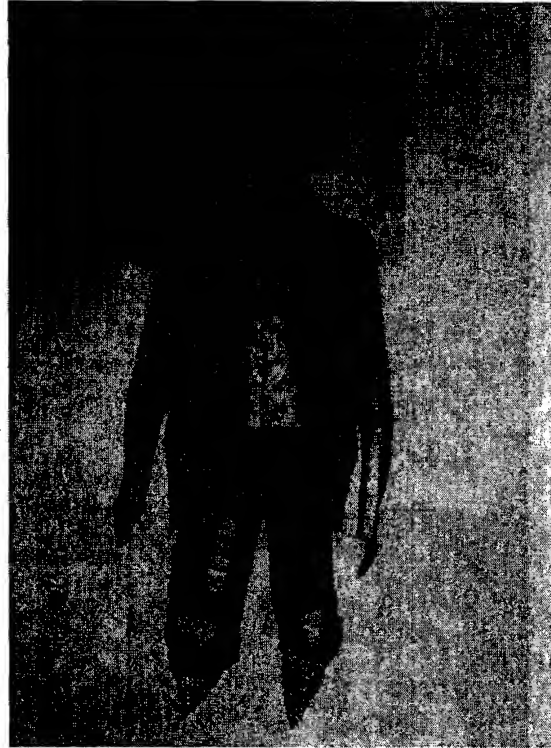
متحف اللوفر - أرشيف الصور الفوتوغرافية - السلطان قانصوي الغوري ، يستقبل وفداً في سفراء البندقية في ١٠ مايو (أيار) ١٥١٢م، للتفاوض حول أسلم الوسائل لمواجهة البرتغاليين ويلاحظ السلطان جالساً على الدكة في باحة القلعة وهو يرتدي العمامة التخفيفية الكبيرة - ويجلس على يساره أكبر موظفي الدولة وهما الدوادار الكبير ، والأمير (قائد الجيش) أما الوقوف على يسار الدكة ، فهم كبار الأمراء المماليك ، ويقف المترجم أما السلطان (هو الذي يظهر في اللوحة من الظهر) ، وجوار الترجمان البعثة الدبلوماسية البندقية برئاسة دومينيكو تريفزانى وعضوية خمسة من البنادقة.



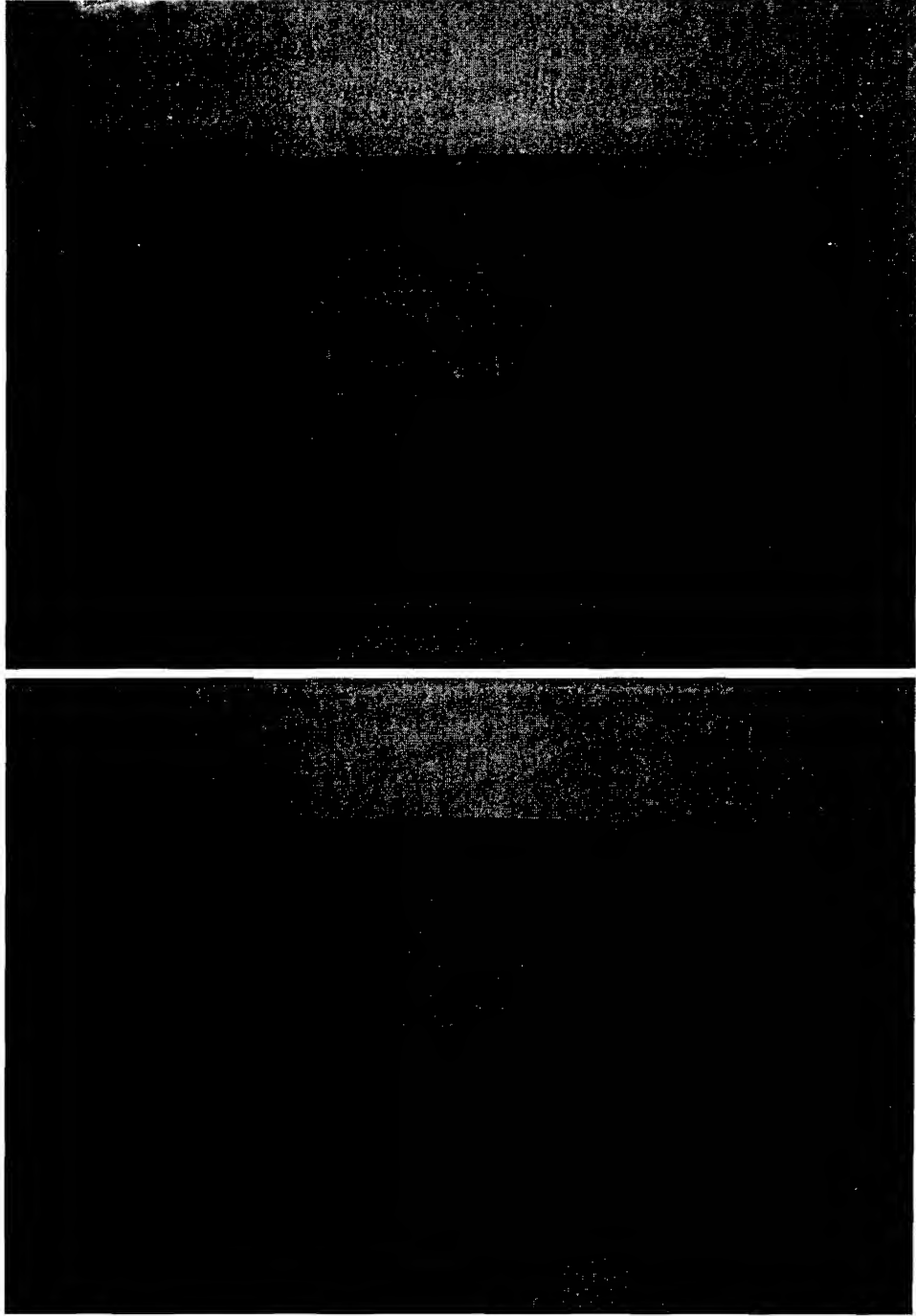
الشكل (٨) لوحة من مخطوط الترياق لجالينوس من حوالي منتصف القرن السابع الهجري (١٣م) محفوظ بالمكتبة الأهلية ببغداد - السلطان مع رجاله ونسائه - يظهر عليهم اللباس التالي - الطويلة - العمامة - القلنسوة بفراء الطاقية - النقاب - القباء السلاري - وتظهر كذلك طريقة تصفيف الشعر لدى رجال المماليك بشكل جدائل رفيعة.



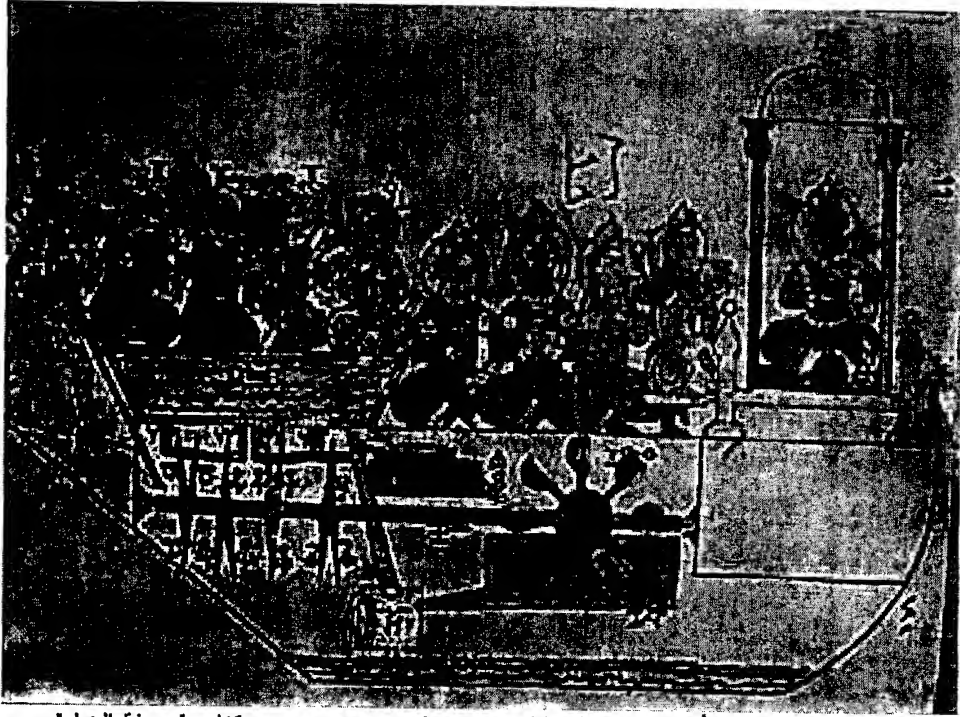
شكل (٩) لوحة من مخطوط الشهنامة للفردوسي ويظهر فيها السلطان المملوكي يجلس على عرشه المصنوع من الذهب - وهو يرتدي الكاملية أو (الجبة) وكذلك التاج . محفوظة في متحف طوبقابو - استانبول



شكل (١٠) لباس حربي مملوكي وهو خاص بالملوك من مقتنيات متحف الفن الإسلامي القاهرة



شكل (١١) طست من النحاس والفضة من عمل ابن الزين (٦٨٧هـ-١٢٠٩م) والإناء
مصور عليه ثمانية عشرة شخصية تعود إلى العصر المملوكي ويظهر عليها اللباس التالي :
التاج - العمامة بأشكال مختلفة - القباء - السروال - النبت

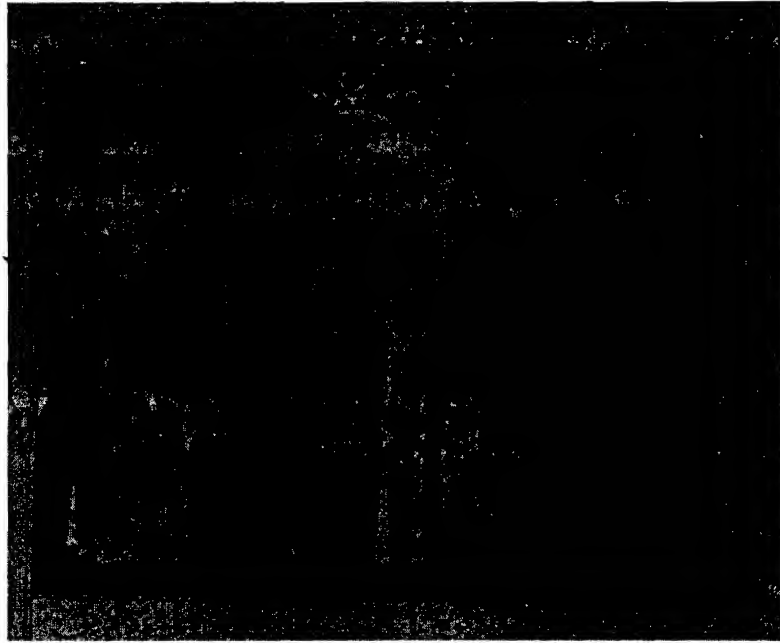


شكل (١٢) صورة لأحد الأمراء المماليك مع ضيوفه وخدمه وهي من كتاب "معرفة الخيل"
للجزري - ١٣١٥م - محفوظة في متحف فريير للفنون يظهر في الصورة - القلنسوة - القباء -
الطراز



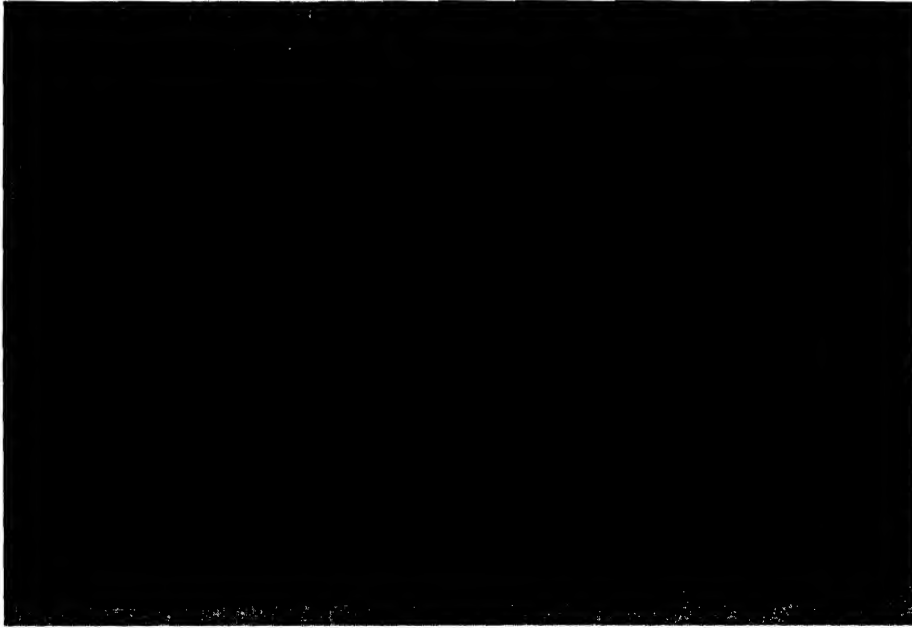
شكل (١٣) لوحة من مخطوط مقامات
الحريري المؤرخ سنة (٦٣٤هـ - ١٢٣٧)
ويظهر فيها اللباس التالي :
الجبة ذات الأكمام الواسعة العمامة بالذوابة
الخف - السروال

الشكل (١٤) لوحة من مقامات الحريري
ويظهر بها اللباس التالي - القباء - الجبة
- المنطقة - القنسوة - العمامة

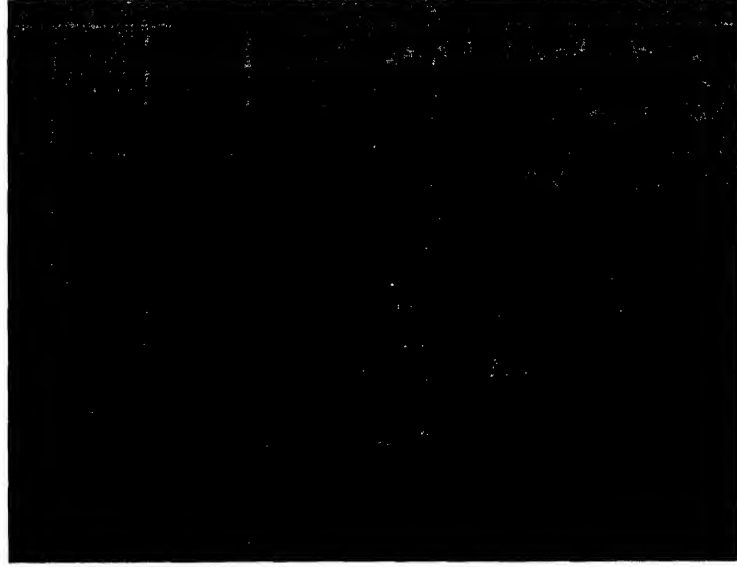


الشكل (١٥) لوحة من مخطوط الشهنامة للفردوسي القوس المزخرف والباب الخشبي
الذي يظهر في مؤخرة اللوحة - يعودان إلى العصر المملوكي - اللوحة رسمت في
بداية القرن ١٦م - ويظهر فيها السلطان وعلى رأسه التاج (الشربوش)

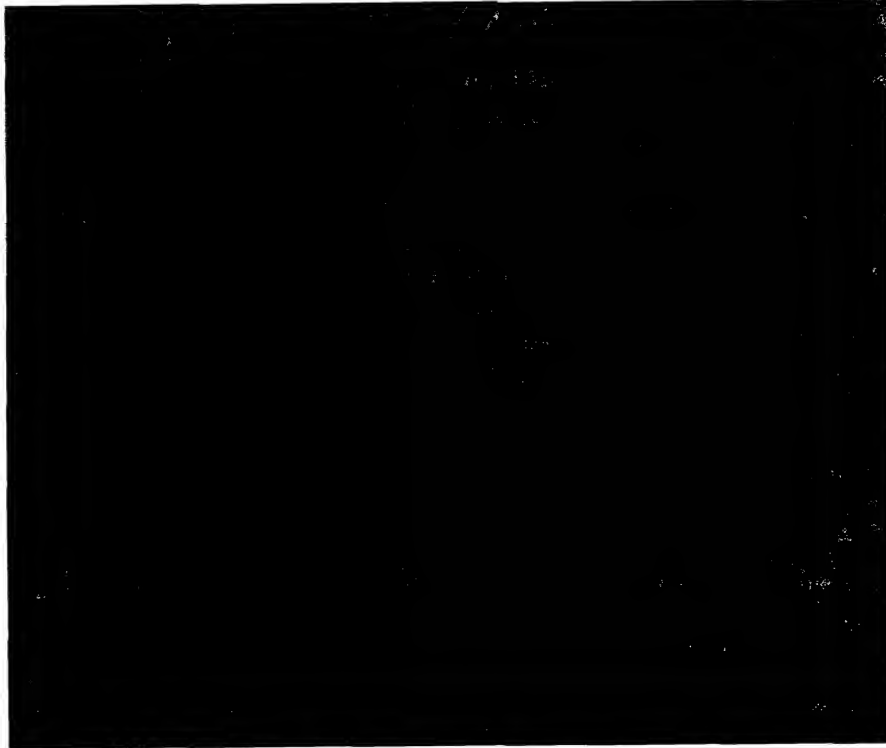
شكل (١٦) لوحة من
مخطوط مقامات الحريري
المؤرخ سنة ٦٣٤ هـ -
يظهر بها اللباس التالي -
القلنسوة الطويلة - السروال -
العمامة



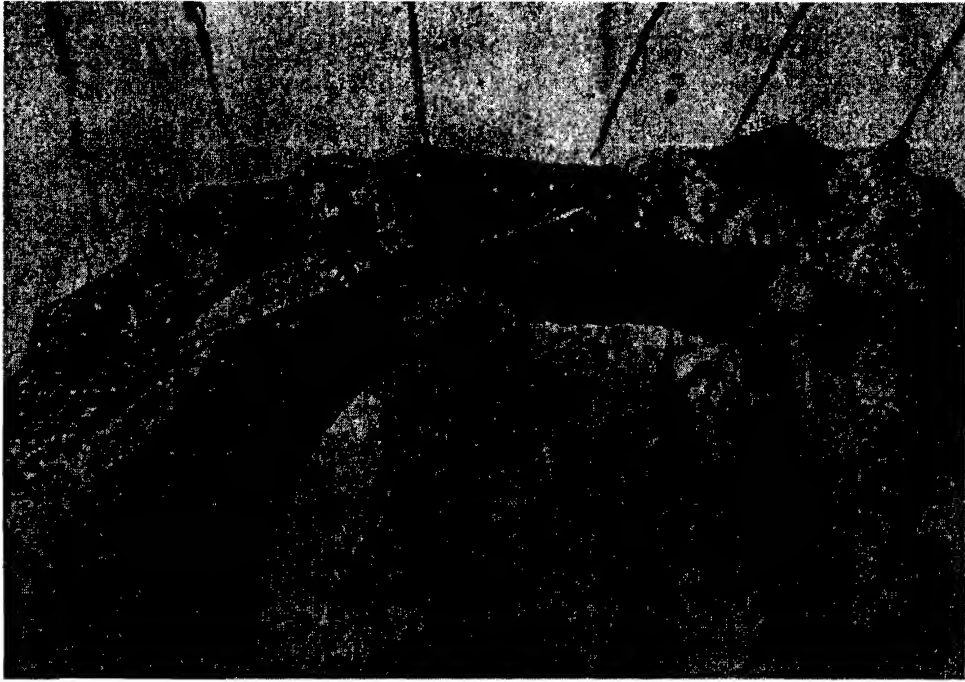
شكل (١٧) لوحة من مخطوط مقامات الحريري - المؤرخ سنة ٦٣٤ هـ
يظهر فارس من الحرس السلطان وهو يرتدي قبايعين من الأطلس الزركش



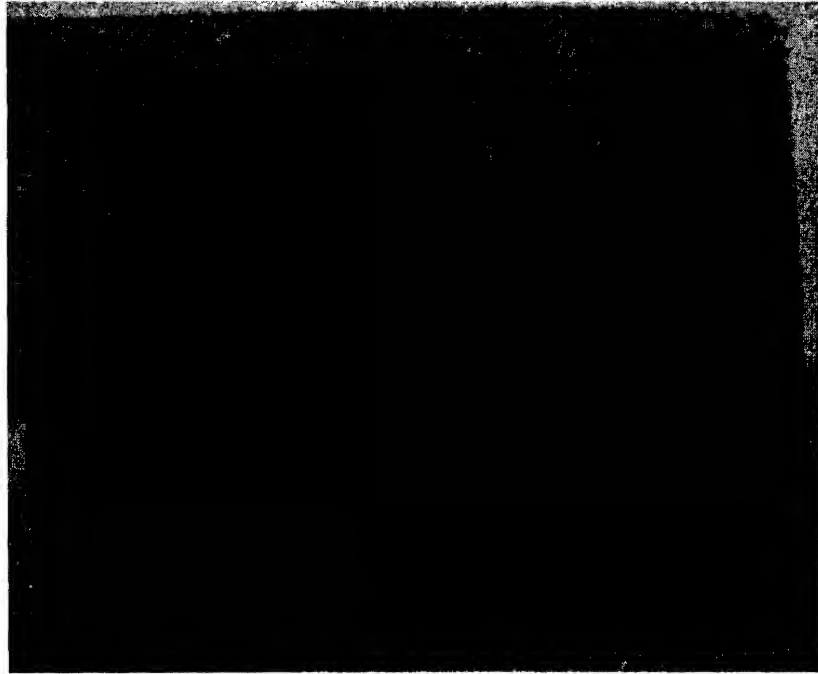
شكل (١٨) لوحة تعود إلى العهد المملوكي مجموعة للفنان علي -موجودة في مكتبة بيتي دوبلن - يظهر في الصورة فارس مملوكي يحمل سيفه ويلبس الخوذة العسكرية ويبيده الأخرى يحمل العمامة "التخفيفة الكبيرة" ويظهر كلك القبايعين والمهماز



شكل (١٩) لوحة من مخطوط مقامات الحريري تعود إلى عام ١٢٣٥م ، محفوظة في المعهد الشرقي لمتحف العلوم في ليننغراد - مجلس قضاء يظهر فيها القاضي مرتدياً (الطرحة)



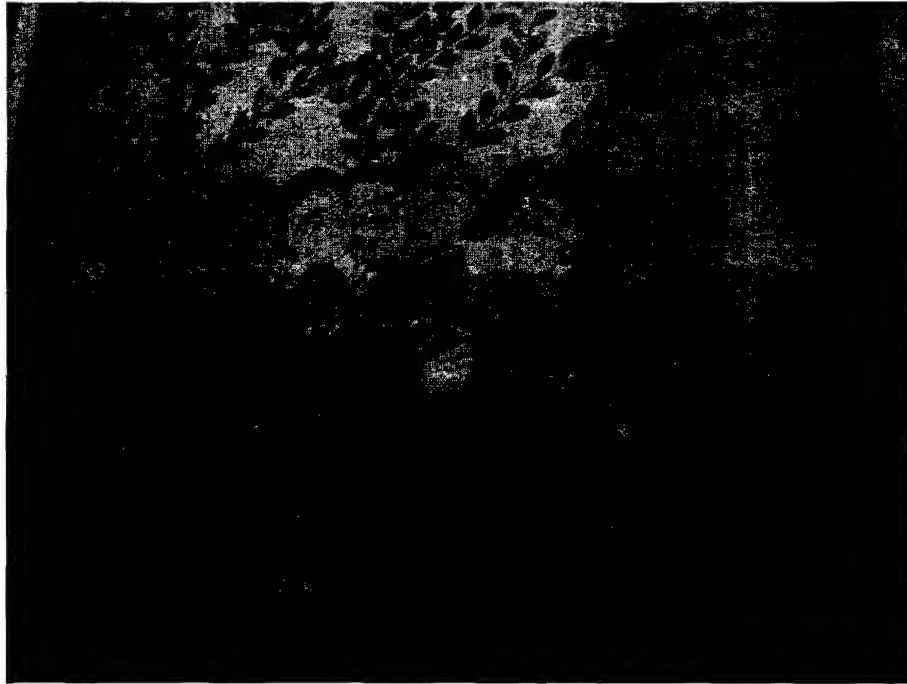
شكل (٢٠) لوحة من مخطوط مقامات الحريري تعود إلى القرن (٧هـ - ١٣م) محفوظة في المعهد الشرقي في أكاديمية العلوم ببلينفرايد ويظهر فيها اللباس التالي : برقع - نعال .



شكل (٢١) جامعة على إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة من عمل شجاع الموصلي سنة (٦٢٩هـ - ١٢٣٢م) محفوظة في المتحف البريطاني بلندن تمثل رجل وإمرأة يظهر فيها اللباس الآتي - كوفية - نقاب



شكل (٢٢) جامة على إيريق من النحاس والفضة من عمل شجاع الموصلي سنة (٦٢٩هـ - ١٢٣٢م) محفوظة في المتحف البريطاني بلندن - يظهر فيها امرأة وخادمتها ويظهر فيها اللباس التالي : بهطلة - بفلوطاق - عصابة مقنزعة - حزام



شكل (٢٣) لوحة تعود إلى القرن (٧هـ - ١٣م) تظهر فيها سيدة عجوز بلباس رأسها المصنوع من الذهب "الطاقية" وهي تستمع إلى الفرقة الموسيقية في حديقة قصرها